الحياة الطيّبة
السنة 25
العدد 46
صيف 2021م
أبحاث ودراسات

حماية الكرامة الإنسانيّة مقصد العمل الخيريّ في الإسلام

د. حسن تلموت[1]

مُستَخلَص:

نشأ العمل الخيريّ في العمل الإسلاميّ المعاصر مرتبطًا بالدعوة إلى الله؛ حتّى صار الدعاة يحسبون أنّ من النتائج اللازمة للعمل الخيريّ وجوبًا التحوّل نحو الإسلام، أو نحو الاعتقاد والعمل الصحيح بالإسلام، بل لقد ارتكز في ذهن المشتغلين في هذا المجال أنّ محرّك العمل الخيري هو السعي إلى استقطاب مسلمين جددًا بالأصالة، حتّى صار عند بعضهم عدم تحقّق هذا المقصد يضرب فائدة العمل الخيريّ.

والحقيقة التي نحاول الوقوف عندها من خلال هذه الدراسة هي أنّ العمل الخيريّ مقصده تحقيق كرامة الإنسان المنصوص عليها في القرآن الكريم، وهذا المقصد الكلّيّ عليه شواهد قويّة الدلالة من نصوص الشرع الحكيم مباشرة، وشواهد من خلال قواعد الشرع الكلّيّة ومقاصده المرجعيّة، تلك القواعد والمقاصد المُستنطَقة من تلك الشواهد.

فالعمل الخيريّ في المرجعيّة الإسلاميّة له محرّكات متعدّدة جامعها جعل العمل الخيريّ يحقّق كرامة الإنسان مقصدًا أوحدًا بالأصالة.

(1) باحث في الفكر الإسلاميّ، من المغرب.

كلمات مفتاحيّة:

العمل الخيريّ، الكرامة الإنسانيّة، المساواة في الخلق، العمل الصالح الخالص، المقاصد الأصليّة والمقاصد التبعيّة، المرجعيّة الإسلاميّة، أفق الشهادة والغيب، التطوّع والإجارة.

مقدّمة:

أسس الإسلام للعمل الخيريّ تأسيسًا يجعله لا ينفصل إطلاقًا عن بنيته المرجعيّة؛ بمعنى أنّ القاعدة تصير إلى أنْ لا إسلام بدون عمل خيريّ، ونقيض ذلك في غير الإسلام هي تلك الأطروحات التي ترى أنّها مرجعيّات لا تتحقّق واقعًا إلا إذا انتفى العمل الخيريّ، فالأطروحة الماركسيّة الشيوعيّة -على سبيل المثال- ترى أنّ العمل الخيري لا يحقّق سوى حالات من الترقيع لوضعيّة إنسانيّة عامّة تدفع في اتّجاه استمرار حالة الهيمنة للمحتكرين لوسائل الإنتاج، هؤلاء المحتكرون الذين أبدعوا في إنتاج قيم أخلاقيّة مناسبة للمرحلة التي بلغها التاريخ في تطوّره الحتمي، وهي في مرحلة الرأسماليّة اجتهاد نسقي للإبقاء على هيمنة البرجوازيّة، وتأخير قيام الثورة الممهِّدة لـ«**ديكتاتوريّة البروليتاريا**».

والماركسيّة الشيوعيّة؛ من حيث كونها أطروحة تحتكر تفسيرًا لرؤية شموليّة للكون والإنسان والحياة، تلفت انتباه الباحثين في العلوم الإسلاميّة، من خلال التفسير بالنقيض إلى أنّ المرجعيّة الشرعيّة الإسلاميّة؛ كونها تفسيرًا منسجمًا وكلّيًّا للكون والإنسان والحياة هي الأسبق في التأسيس لموقف واضح من العمل الخيريّ، ولأنّ المرجعيّة الإسلاميّة منفتحة على أفقين رحبين؛ هما: أفق الغيب، وأفق الشهادة، فإنّها بالضرورة ستكون نقيضًا كلّيًّا لما تروّج له الأطروحة الماركسيّة من موقف تجاه العمل الخيريّ؛ باعتبار هذه الأطروحة منحسرة الرؤية في عالم «**الشهادة**» الضيّقة التي لا ترى في الإنسان أبعد من انعكاس للمادّة، ومركّب للتغيير المادّيّ، مهما كان حجم

الألم الذي سيعيشه هذا الإنسان، مرافقة للتغيير المنشود؛ باعتباره انعكاسًا للمادّة ماضيًا في مسار حتميّ، لا يملك هذا الإنسان المساهمة فيه.

إنّ الفرق بين الأطروحتين هو في كون المرجعيّة الإسلاميّة جوهر قصدها مصلحة الإنسان ورفاهه، بحيث تسلّمه المشعل فاعلًا في التغيير، وتؤشِّر له على مسارات التأثير في واقع يملك تغييره بقدر، فيحرص على تقديم الخير للبشريّة، ويرفع عن أفرادها الألم، وييسّر لهم سبل تجاوزه، بمساعدتهم على الرفع من جودة عيشهم؛ أفرادًا ومجتمعات، دون خضوع لمنطق حالم ينتظرون معه مجيئ تلك «**الحتميّة**» التي ستفرض عليهم أنْ يتغيّروا؛ كما تتغيّر تفاصيل المادّة نحو مرحلة «**طوباويّة**»، سيطول بهم المقام في انتظار تحقّقها، وهذا هو جوهر الأطروحة الأخرى التي لا ترى في هذا الإنسان إلا جزءً لا يمكن تجزيئه من عالم مادّيّ متحرّك يسير به وفق قوانين »الحتميّة التاريخيّة»، و«**الحتميّة المادّيّة**» إلى مرحلة نهائيّة يصير فيها العالم حتمًا على صورة معيّنة مغرقة في المثاليّة والخيال، وهي مرحلة حتّى مع تحقّقها؛ فإنّ الإنسان فيها يبدو خاملًا خاضعًا لقوانين غير منتجة أبدًا، غير مؤثّر في سياقاته الذاتيّة؛ كما الموضوعيّة.

إنّ الإسلام يعتبر حياة الفرد من حياة الجماعة، فلا يضحّي بالفرد في سبيل الجماعة؛ كما لا يضحّي بالجماعة في سبيل الفرد؛ ذلك أنّ الفرد جزء لا يمكن تجزيئه من الجماعة قطعًا، قال -تعالى-: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

أولًا: العمل الخيريّ وعلاقته بالكرامة الإنسانيّة.. بحث مفهومي:

لا بدّ لتحديد مفهومَي العمل الخيريّ والكرامة الإنسانيّة والعلاقة بينهما، من الوقوف عند دلالات كلّ من العمل والخير والكرامة في اللغة والشرع.

(1) سورة المائدة، الآية 32.

1. العمل في اللغة والشرع:

في اللغة جماع دلالة «**العمل**»؛ هي: «المهنة والفعل. والجمع أعمال»[1]. «عمل عملًا... رجل عمول؛ بمعنى عمل؛ أي مطبوع على العمل»[2]، فـ«العين والميم واللام، أصل واحد صحيح، وهو عامّ في كلّ فعل يفعل»[3].

وأمّا العمل في دلالة النصّ الشرعيّ فهي لا تخرج عن المعنى الذي اتّفق عليه لغويًّا؛ من كونه كلّ فعل يُفعل، غير أنّ اللافت للنظر هو كون العمل في النصّ الشرعي ورد في كثير من الآيات القرآنيّة مسبوقًا بشرط الإيمان وملازمًا لصفة الصلاح، ولم يرِد مقرونًا بالسوء؛ إلا في مواضع قليلة جدًّا، من مثل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾[4]. ومن الآيات التي تدلّ على مركزيّة «**الإيمان**» و«**عمل الصالحات**» في «**العمل**»: قوله -تعالى-: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[5]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾[6]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾[7]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[8]، ...

(1) ابن منظور، محمد بن مكرم: لسان العرب، بيروت، دار صادر، ج11، ص475.
(2) الزبيدي، محمد: تاج العروس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر، 1414هـ/ 1994، ج15، ص522.
(3) ابن فارس، أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ/ 1979م، ج4، ص145.
(4) سورة آل عمران، الآية 30.
(5) سورة البقرة، الآية 25.
(6) سورة الرعد، الآية 29.
(7) سورة الحج، الآية 23.
(8) سورة النحل، الآية 97.

2. الخير في اللغة والشرع:

وأمّا دلالة لفظة «خير» في اللغة؛ فـ «الخاء والياء والراء أصله العطف والميل، ثمّ يحمل عليه، فالخير خلاف الشرّ؛ لأنّ كلّ أحد يميل إليه ويعطف على صاحبه... والخير الكرم»[1]، وهو ضدّ الشرّ. وقال سبحانه: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ﴾؛ «وهي جميع خيرة، ومعناها الفاضلة في كلّ شيء»[2]، و«الخير جمع خيور، والمال والخيل، وكثير الخير؛ كالخيّر؛ ككيس»[3].

وترد كلمة »خير» في الاستعمال اللغويّ صيغة للتفضيل؛ بمعنى »أفضل»، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[4]، لكنّ هذا المساق، وإنْ كان يتقاطع مع المقصود من توظيف هذه اللفظة في هذه الدراسة، غير أنّه لا يتطابق معه، ولذلك يكفينا الوعي بهذا المعنى مع الجنوح في الاستمداد من «**القرآن الكريم**» إلى الآيات المطابقة للمعنى اللغويّ المنوّه عليه سلفًا؛ وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[5]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[6]؛ فهذه الآية وصفت الإنفاق بكونه «**فعلًا**»؛ أي «**عملًا**» للخير. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾[7]، ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[8]، ﴿كُنتُمْ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، م.س، ج2، ص232.
(2) ابن المثنى، معمر: مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزگين، تصدير: أمين الخولي، ط2، مكتبة الخانجي؛ دار الفكر، 1390هـ/ 1970م، ج1، ص267.
(3) الفيروزآباديّ، القاموس المحيط، م.س، ج2، ص25.
(4) سورة يونس، الآية 58.
(5) سورة البقرة، الآية 110.
(6) سورة البقرة، الآية 215.
(7) سورة آل عمران، الآية 30.
(8) سورة آل عمران، الآية 104.

خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1]، ...

3. الكرامة في اللغة والشرع:

«الكاف والراء والميم أصل صحيح له بابان: أحدهما: شرف في الشيء في نفسه، أو شرف في خلق من الأخلاق. والأصل الآخر: الكرم؛ وهو القلادة»[2]. و«الكرم ضرب من الحلي، وهو قلادة من فضّة تلبسها نساء العرب... الكرم شيء يصاغ من فضّة يلبس في القلائد ... والتكرمة: الموضع الخاصّ لجلوس الرجل من فراش، أو سرير، ممّا يعدّ لإكرامه، وهي تفعلة من الكرامة»[3].

وأمّا في الشرع فقد ورد استعمال الكرامة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[4]؛ فـ«كرّمنا تضعيف كرم؛ أي جعلنا لهم كرمًا؛ أي شرفًا وفضلًا، وهذا هو كرم نفي النقصان، لا كرم المال. وهذه الكرامة يدخل فيها خلقهم على هذه الهيئة في امتداد القامة وحسن الصورة، وحملهم في البرّ والبحر ممّا لا يصحّ لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمّل بإرادته وقصده وتدبيره. وتخصيصهم بما خصّهم به من المطاعم والمشارب والملابس، وهذا لا يتّسع فيه حيوان اتّساع بني آدم؛ لأنّهم يكسبون المال خاصّة دون الحيوان، ويلبسون الثياب ويأكلون المركبات من الأطعمة، وغاية كلّ حيوان يأكل لحمًا نيئًا أو طعامًا غير مركب... كرّمهم بالنطق والتمييز... بأنْ جعل محمّدًا ﷺ منهم... وبتسليطهم على سائر الخلق، وتسخير سائر الخلق لهم.

(1) سورة آل عمران الآية 110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، م.س، ج5، ص172.
(3) ابن منظور، لسان العرب، ج12، ص74.
(4) سورة الإسراء، الآية 70.

وقيل: بالكلام والخطّ. وقيل: بالفهم والتمييز، والصحيح الذي يعوَّل عليه أنّ التفضيل إنّما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يُعرف الله ويُفهم كلامه، ويُوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنّه لمّا لم ينهض بكلّ المراد من العبد بعثت الرسل وأُنزلت الكتب»[1].

4. الدلالة التركيبيّة لمفهوم العمل الخيريّ وعلاقته بالكرامة:

بالاستناد إلى ما تقدّم من بحث في اللغة والشرع عن مفاهيم العمل والخير والكرامة، يمكن أن نستنتج جملة من الأمور؛ هي:

- أنّ العمل هو مطلق الفعل، فكلّ فعل هو عمل.
- أنّ العمل -وهو مطلق الفعل- في الإسلام مرتبط ارتباطًا وثيقًا بمنطلق يحرّكه؛ وهو الإيمان، وموجِّه يراقبه ويقوِّمه؛ وهو الصلاح، حتّى يكون مساره نحو سلامة القصد في المسرب الصحيح.
- أنّ الخير هو كلّ فاضل وحسن من الأشياء والأعمال.
- أنّ الدعوة إلى الخير من الأدوار الرئيسة لأمّة الإسلام، ومن ثمّ فهو بذاته رمز خيريّتها.
- أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هو رأس الأمر بالخير، وهو الوجه الظاهر الناصع لاستحقاق الخيريّة.
- أنّ الخير هو الإسلام؛ لأنّ أحكامه موافقة لما تعارفت عليه الفِطَر والعقول السليمة.
- أنّ الكرامة ملازمة للإنسان؛ من حيث هو إنسان؛ ملازمة الجوهر للظاهر.

(1) القرطبي، محمد: الجامع لأحكام القرآن، القاهرة، دار الحديث 1428هـ/ 2007م، مج5، ج10، ص624.

- أنّ الكرامة منحة ربّانيّة لابن آدم؛ من حيث آدميّته، لا ينزعها منه أحد، ولا يفاضل فيها أحد على أحد؛ تبعًا لاعتبارات غير إنسانيّة.

هذه الأمور والتفاصيل ذات الصبغة التقعيديّة تمكّننا من أنْ نولّد منها صورة ذات صبغة جزئيّة قادرة على التموضع داخل بنائها التقعيديّ، وهذه الصورة الجزئيّة؛ هي تعريفنا الإجرائيّ لمفهوم «**العمل الخيريّ في الإسلام والكرامة الإنسانيّة**»، ومن ثمّ فإنّ دلالة العمل الخيريّ في الإسلام في هذه الدراسة لن تخرج عن كونه هو كلّ فعل ينطلق من مرجعيّة إيمانيّة يريد صاحبها وجه الله والدار الآخرة. وهذا العمل تتعدّد صُوَره؛ بحيث تشمل كلّ فعل صالح تتيسّر معه حياة الناس، وتصان معه كرامتهم.

والكرامة في باب فعل الخير الذي نحن بصدد بيانه، هي إغناء الناس عن ذلّ السؤال الذي صوَّره النبيﷺ صورة تدلّ على أنّه لا يأتيه إلا مَنْ لم يجد عنه بدًّا، أو مَنْ ألف مذلّته: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله وما في وجهه مزعة لحم»[1].

«قال الخطّابيّ: يحتمل أنْ يكون المراد أنّه يأتي ساقطًا لا قدر له ولا جاه، أو يعذَّب في وجهه حتّى يسقط لحمه لمشاكلة العقوبة في مواضع الجناية من الأعضاء؛ لكونه أذلّ وجهه بالسؤال»[2]، وإنْ كان سياق الحديث وتخريج المخرجين له وتعليقات الشارحين عليه كان في باب الحديث عن ذمّ المسألة بغير حاجة، غير أنّ الذي يعنينا في هذا المقام هو التنبيه على المذلّة الناتجة عن مسألة الناس في الدنيا، دون أن تميّز هذه المذلّة بين محتاج أو مُستَكثِر.

(1) العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ضبط وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، تحقيق: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ط2، دار الكتب العلمية 1426هـ/ 2005م، كتاب الزكاة، باب من سأل الناس تكثّرًا، حديث رقم 1474.

(2) م.ن، مج4، ج3، ص292.

إنّ العمل الخيريّ من وجهة نظر إسلاميّة هو سعي لتمتيع الإنسان بكرامته؛ ابتداءً من رفع ذلّ السؤال عنه، إلى إشعاره باستحقاق الانتساب إلى جماعة الناس، من دون إشعاره بأيّ مركّب نقص.

ثانيًا: العمل الخيريّ وخدمة الكرامة الإنسانيّة في الإسلام.. تأصيل وتفصيل:

بعد ما خلصنا إلى معنى إجرائيّ للعمل الخيريّ؛ وهو كلّ فعل صالح تتيسّر معه حياة الناس، وتصان معه كرامتهم، وكان وجه الكرامة في باب فعل الخير الذي نحن بصدد بيانه هو إغناء الناس عن ذلّ السؤال، فإنّنا نحسب أنّ الأمر يحتاج إلى تأصيل وتفصيل نخوض غماره من باب التأمّل في النصوص القرآنيّة:

1. في التأصيل/التقعيد للعمل الخيريّ وخدمة الكرامة الإنسانيّة في الإسلام:

يقول تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1]، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[2].

اللافت للنظر في الآيتين أنّ الأولى بيّنت أنّ من أجمع مهام هذه الأمّة التي يلزم أن تقوم بها؛ هو أنْ تأمر بالخير، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ وهما من فعل الخير، والأمر به ذاتُه، في الوقت الذي تبيّن الآية الثانية أنّ فعل الخير هذا هو الذي أكسب الأمّة صفة الخيريّة، وهذا تنزيه لهذه الأمّة عن أنْ تقف في مقام «**الطائفيّة/العنصريّة**» المَقيتة؛ ذلك أنّ المرجع في الانتساب إلى أمّة الخير هذه، ليس عرقًا أو لونًا أو دمًا... بل

(1) سورة آل عمران، الآية 104.
(2) سورة آل عمران الآية 110.

هو مطلق الانتساب إلى الخير، ومن ثمّ يتبيّن لنا أنّ الأمر بالخير الموجب لاستحقاق الارتقاء إلى مرتبة الخيريّة لمّا كان جوهر قصد المؤمن المسلم بأمر من الله عزّ وجلّ، فإنّ ذلك يمكّننا من الجزم أنّ الخير هو الإسلام ذاته. وهذا ما يؤكّده الأستاذ «الطاهر بن عاشور» في تفسير معنى «الخير» في هذه الآيات بقوله: «ومعنى الدعاء إلى الخير الدعاء إلى الإسلام، وبثّ دعوة النّبي ﷺ **ف**إنّ الخير اسم يجمع خصال الإسلام: ففي حديث حذيفة بن اليَمان: «قلت: يا رسول الله إنّا كنّا في جاهلية وشَرّ فجاءَنا الله بهذا الخيْرِ فهل بعد هذا الخير من شرّ»... الحديث، ولذلك يكون عطف الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر عليه من عطف الشيء على مغايره، وهو أصل العطف، وقيل: «أريد بالخير ما يشمل جميع الخيرات، ومنها الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، فيكون العطف من عطف الخاصّ على العامّ للاهتمام به»[1].

فخصال الإسلام التي هي مسمّى «**الخير**»؛ بحسب دلالة النصّ القرآنيّ، هي كلّ ما يوافق مستحسنات الفطرة الإنسانيّة السليمة غير المنحرفة، وضابط سلامتها عدم الخروج على ما اتّفقت العقول السليمة على تعريفه؛ أي كونه «**معروفًا**»، وما توافقت على إنكاره؛ أي كونه «**منكرًا**»، ولذلك جاءت الآية الكريمة في مقام البيان للخير المطلق بعطف الأمر بـ«**المعروف**» مطلقًا، والنهي عن «**المنكر**» مطلقًا، للإشارة إلى مرجعيّة سلامة الفطرة، ورجاحة العقل في تمييز المعروف الموافق للخير، وتمييز «**المنكر**» المصادم للخير، هذا الخير الذي هو «**خصال الإسلام كلّها**».

ولمّا كان جماع ما تحصّل من معاني «**الكرامة**» في اللغة والشرع، أنّها مرتبة تفضيل خصّ الله تعالى بها الإنسان، دون باقي خلقه، وتلك المرتبة من الشرف والرفعة لا تشَبَّه إلا بالقلادة التي يحاط بها النحر، وتتوّج أشرف

(1) الطاهر، ابن عاشور: تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون، لا ت، مج1، ج4، ص40.

ما في الإنسان؛ وهو «**صدره**»، ولمّا كان خلاصة ما تحصّل لنا من معاني الخير في ارتباطه بالإسلام أنّ الخير هو الإسلام:

- من جهة كونه يعترف للإنسان بالكرامة بكونه إنسانًا
- ثمّ من جهة تحريره من عبادة غير الله عزّ وجلّ؛ وبالتالي يضمن له بذلك سيادة وكرامة في الحياة ما بعدها كرامة.
- ثمّ من جهة ضمان الانتساب إلى خيريّة الأمّة؛ بإتيان «**الأمر بالخير والمعروف والنهي عن المنكر**» وعدم حصر ذلك في العرب أو العجم أو غيرهم.
- وأيضًا من جهة عدم قهره الإنسان في الانتساب إلى عقيدته -على كونها الحقّ- بل بضمان حقّ الاختيار مع استحقاق الكرامة على أيّ حال: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾[1]، ولنا هنا وقفة للبيان، فوجه استحقاق الخيريّة هنا هو أنّ المجتمع المسلم بوضعه لقوانين ناظمة للعلاقة بين أفراده ضمن لجميع منْ يعش فيه الحقوق المدنيّة نفسها، وأقرّ عليهم الواجبات المدنيّة نفسها أيضًا، ولم يخصّ المنتسبين إلى عقيدة الإسلام إلا بالواجبات والحقوق التي مرجعها إلى التفاضل في الآخرة؛ كلزوم الصلاة، وإخراج الزكاة... وذلك موَجِّه فهم قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[2]؛ فإنّ أصل خلق الله -عزّ وجلّ- للإنسان على صورة واحدة لا مميّز لآحادهم على غيرهم، يُوجب لهم الاستحقاق نفسه في الكرامة؛ بالتعارف والتواصل وتبادل المنافع، أمّا «**الكرامة**» و«**التكريم**» المبني على درجات التقوى المنصوص عليها في الآية الكريمة؛ فإنّها ليست للتمايز في الدنيا؛ ذلك أنّ معايير تقويمها غير متيسّرة للناس، فهم

(1) سورة الكهف، الآية 29.
(2) سورة الحجرات، الآية 13.

غير مطلعين على النوايا ولا على الخفايا، وحسبهم الظواهر، والظواهر خدَّاعات، فقد تحمِل اللبيب على تصنيف «**المنافق**» على رأس المتّقين، وهو غير عالم بضميره ومضمراته، ولذلك اختصّ الله -عزّ وجلّ- نفسه بتمييز الناس على أساس «**التقوى**»؛ وذلك بالحكم عليهم يوم القيامة، بعدما كانت الدنيا دار تعارف وتكارم بين الناس، ومجادلة بالقول والرأي في المختلفات فيها: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[1].

- ومن جهة أنّ انتشار قيم الإسلام في تكريم الإنسان ضامن لتحقّق أقصى درجات العدل والرفاه والرحمة.. في الحياة، وتلك هي قيم الأمر بالخير وبالمعروف والنهي عن المنكر المنصوص عليها في الآيات الكريمات.

ومن تضافر مشهد القلادة على صدر المرء، محيطة بنحره، وتخصيص الله عزّ وجلّ البشر بالرفعة والمهابة والتفضيل على سائر الخلق، يتبيّن ما ينبغي أن يعمل الناس عليه من حفظ لأصل هذه الكرامة الربّانيّة، ومبالغة في السعي لتحقيق أرقى صورة ممكنة لها.

ويمكن إعـادة تفكيك كلّ العناصر المركّبة في علاقة «**العمل**» بـ«**الخير**»/«**الإسلام**» بـ«**الكرامة**»؛ وفق الشكل التالي:

- العمل = مطلق الفعل
- الخير = الإسلام
- الإسلام = الأمر بما تعارف عليه الإنسان من ذوي العقل والفطرة السليمة
- الأمر بالخير + الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر = استحقاق أمّة

(1) سورة الحج، الآية 69.

الإسلام صفة الخيريّة بين الأمم، دون النظر إلى العرق والنسب

- الإسلام = الخير = التأكيد على كرامة الإنسان الخلقيّة والكسبيّة
- الكرامة = ملازمة للإنسان؛ من حيث هو إنسان.

إنّ التأمّل في هذه المفردات، والخوض في أنواع العلائق التي تجمعها وتتيح لها إمكانات العمل والإنتاج في تكاملها، ثمّ العودة إلى تركيب هذه العناصر مع مراعاة تلك العلائق، يفضي بنا -لا محالة- إلى فهم آليّات اشتغال هذا المركّب الكلّيّ الذي هو نتاج صوريّ نهائيّ لتلك العناصر في تفكّكها. وخلاصة هذا المركّب ومنهج اشتغاله؛ هو:

أنّ الإسلام الذي هو «**الخير**»؛ إنّما هو وحي من الله عزّ وجلّ، وهو -سبحانه وتعالى- خالق الخلق جميعًا والمتفضّل عليهم بالكرامة الأصليّة، التي لا يحقّ لأحد أن ينزعها منهم؛ لأنّها عطاء من خالقهم، ولا أنْ يعيد ربطها بغير آدميّته؛ لأنّ خالقه -سبحانه- أقرّ له بأنّ مرجعيّتها هي الآدميّة، لا غير، ومن ثمّ فقد أمر كلّ من التحق بهذا الخير مصدّقًا لمرجعيّته الغيبيّة طوعًا؛ وهي أركان الاعتقاد والإيمان فيه، بالنظر الجليّ في توافق هذا الخير «**الإسلام**» مع عناصر تكريم الإنسان «**المكرَّم**»؛ وهو العقل والفطرة، ومن ثمّ دعوة هذا المكرَّم إلى الالتحاق بالإيمان وهذا الخير؛ لتتكون من ذلك أمّة تأمر بما تعارفت عليه عليه مناطات تكريم الإنسان »فطرة وعقلًا»؛ وهو المعروف، وتنهى عن ما أنكرته مناطات التكريم هذه، فتكون المحصّلة: صلاح الكون بتعميم الخير فيه، والنتيجة مزيد كرامة الإنسان؛ من حيث هو إنسان.

2. في التفصيل للعمل الخيريّ وخدمة الكرامة الإنسانيّة في الإسلام:

بعد التعرّض للتقعيد الفلسفيّ الكلّيّ لعلاقة «**العمل الخيريّ**» بمقصد تحقيق «**الكرامة الإنسانيّة**» وحمايتها إجمالًا، لا بدّ من ان نخصّ بعض صور

العمل الخيريّ التفصيليّة بالبيان، تنزيلًا للتقعيد السالف، ووقوفًا عند بعض الإشكالات التفصيليّة.

ونستهل الخوض في القضايا التفصيليّة باستيراد بعض التعريفات التي حاولت بيان معنى «**العمل الخيريّ**» على المستوى التفصيليّ، عرّف البعض العمل الخيريّ بأنّه «يشمل كلّ سُبل الخير والبرّ والإحسان والمعروف، وجميع ضروب التكافل والتراحم والتعاون غير المنهي عنه شرعًا، ويقصد بإنشائه سدّ خلّات المحتاجين، ورعاية المرضى، ونصرة المستضعفين، ومساعدة مَنْ يحتاج إلى تطوير قدراته الاقتصاديّة أو الاجتماعيّة، وإعانة مَنْ يريد تقوية ملكاته المعرفيّة أو التقنيّة. وريعه يعمّ عامّة المحتاجين: مؤمنهم وكافرهم، قريبهم وبعيدهم، ويشمل كافّة مجالات الحياة، ويمتدّ خيره ليسع الحيوان أيضًا»[1].

كما عرّف آخرون بأنّه: «عمل يشترك فيه جماعة من الناس لتحقيق مصلحة عامّة، وأغراض إنسانيّة أو دينيّة أو صناعيّة أو اقتصاديّة بوسيلة جمع التبرّعات وصرفها في أوجه الأعمال الخيريّة، بقصد نشاط اجتماعيّ أو ثقافيّ أو إغاثيّ؛ بطرق الرعاية أو المعاونة؛ ماديًّا أو معنويًّا، داخل الدولة وخارجها، من غير قصد الربح لمؤسّسيها؛ سواء سُمّي إغاثة، أو جمعيّة، أو مؤسّسة، أو هيئة، أو منظّمة خاصّة أو عامّة»[2].

وهذان التعريفان خالفا جهدنا التقعيديّ؛ بكون أوّلهما اكتفى بتحديد مجالاته التي ينصبّ عليها العمل الخيريّ، ولم يتكلّف مجهود التعريف الجامع، حيث نصّ على أنّه يشمل سبل الخير... وريعه يتعدّى إلى الحيوان... أمّا ثانيهما، فلم ينفذ إلى عمق الظاهرة ليتأمّلها تأمّلًا فلسفيًّا؛ باستحضار

(1) الأمين، الناجي: الوقف وتنميته وخطورة اندثاره عن العمل الخيريّ، ط2، دار الكلمة للنشر والتوزيع، 1435هـ/ 2014م، ص9.

(2) مهدي، محمد صالح: »العمل الخيريّ دراسة تأصيليّة تأريخيّة«، مجلة سرّ مَن رأى، المجلد 8، العدد 30، السنة الثامنة، تموز 2012م.

أبعادها في شموليّته، بل اكتفى بالوصف لمشاهداته الخارجيّة، كونه نظر إلى التجمّعات التي تشتغل بالإغاثة وجمع التبرّعات... ونحن لا ننفي ما في التعريفين من جهد نستثمره؛ بما يتيحانه لتغذية ما عرّفنا به «**العمل الخيري**» تقعيدًا، فنجعل كلام الدكتور «**الناجي الأمين**»؛ مضافًا إلى تعريفنا التقعيديّ الذي هو «كلّ فعل صالح تتيسّر معه حياة الناس، وتصان معه كرامتهم»؛ فيتحصّل لنا مجالات انصباب هذه الأفعال الصالحة، وهو سدّ خلّات المحتاجين، بل ورحمة الحيوانات... كما نأخذ من تعريف الدكتور «**محمد صالح جواد مهدي**» شكل هذه الأعمال؛ بكون صُوَرها لا تخرج عن اجتماع الناس لجمع التبرّعات والقيام بأعمال إغاثيّة أو ثقافيّة... بغير قصد الربح...

أ. نصوص الشرع والتفصيل في قضايا العمل الخيريّ:

انطلق العمل الخيريّ في الإسلام تزامنًا مع بدايات الدعوة إلى الله زمن النبوّة، حيث إن من أدوار النبوّة التي صرّحت الممارسة النبويّة الظاهرة أو التنظيريّة بها؛ هي: خدمة الناس خيريًّا، وتيسير ظروف العيش لهم؛ بجلب النفع ودفع الضرّ عنهم، ولا أحسب النصوص الشرعيّة الدالّة على هذا الكلام من الخفاء؛ بحيث يكلّ المرء في البحث عنها، ونحن نورد في ما يلي ما نعتبره نصًّا من النصوص المرجعيّة في هذا الصدد:

- «**تنفيس الكربات عن الناس**»:

روي عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «**مَنْ نفَّس عن مؤمن كربة من كُرب الدنيا، نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومَنْ يسَّر على مُعسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومَنْ سَتَر مسلمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه، ومَنْ سلك طريقًا يلتمس فيه عِلمًا، سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنّة**»[1].

(1) النووي، محي الدين يحيى: صحيح مسلم بشرح النووي، ضبط وتوثيق: صدقي محمد جميل العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1424هـ/ 2004م، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر، حديث رقم2699، مج9، ص19.

وبالتأمّل في هذا الحديث، نجد أنّه ناطق بما أريد الاستشهاد به عليه؛ من تحفيز القوم على الاشتغال بخدمة الناس، ويمكن أن نستفيد منه جملة أمور؛ هي:

- أنّ قصد العمل الخيريّ الأسمى هو خدمة الناس لذاتها؛ طلبًا للأجر في الآخرة؛ لأنّ تنفيس الكرب في الدنيا يجلب تنفيسها في الآخرة.
- أنّه فيه تأكيدًا على استحقاق الخلق جميعهم للخدمة الخيريّة دون تحييز للجنس والعرق والدين... فقد نصّ النبيﷺ في هذا الحديث على المراتب الثلاثة المؤسّسة على مرجعيّة الدين؛ استحقاقًا للخدمة، فذكر: «**المؤمن، ثمّ المسلم، ثمّ مطلق العبد**»؛ وإنّما -نحسب- أنّهﷺ ذكر مراتب الدين المؤطّرة لانتماء البشر؛ لكونه نبيًّا، ثمّ لكون هذه المراتب هي التي كان على أساسها يتفرّق الناس بالخصوص في ذلك الزمن، وما زالوا على ذلك.
- أنّه يظهر من الحديث أنّ المقصود بالخدمة هم الناس جميعًا؛ مؤمنهم، وغير مؤمنهم، فالحديث نصّ في بعض مقاطعه على «**المؤمن**»، ثمّ أطلق الكلام في غير هذه المقاطع؛ منبّهًا إلى وجوب خدمة المُعسر أيًّا كان، ولكي لا يُفهم أنّ لفظة «**المؤمن**» مخصّصة لعموم «**المُعسر**»، ويحسب أنّ الكلام جار مجرى «**العموم المراد به الخصوص**» -كما يقول الأصوليّون-، فقد جاء مقطع آخر من الحديث مشيرًا بوضوح أنّ مطلق «**العبد**» يستحقّ العون.
- أنّ النصّ الحديثيّ يبيّن تلازم «**العمل الخيريّ**» مع التأطير العلميّ، ومرجع ذلك -حسب فهمنا- هو أنّ غياب التتبّع العلميّ التأسيسيّ والتقويميّ للعمل الخيريّ قد يحيد به إلى غير ما شرّعه الله تعالى لأجله، وبالتالي يصير نقمة؛ عوض أن يبقى نعمة للبشريّة عمومًا، وللعمل الإسلاميّ خصوصًا.

ولأنّ العمل الخيريّ مفتقر إلى المراجعة العلميّة الدائمة التي تعصمه من الزلل بالوقوع في أبواب غير ما تأسّس لأجله، ولأنّنا نخشى أن يتسرّب الخلل إلى العمل الخيريّ خفية، وقد بدأنا نتلمّس ذبيبه مع الفورة العاطفيّة -المتفهّمة- للتعاطف مع المسلمين المقهورين في كثير من بقاع العالم، فإنّنا لا بدّ أن نعلي من ترابط العلم بالعمل الخيريّ؛ تأسيسًا على توجيه الحديث النبويّ، فإنّ من شأن سبيل العلم أنْ يقي مواطن الزلل حتّى يصل بصاحبه إلى مداخل الجنّة، ومَنْ لم يستعصم بطريق العلم تسير به التلبيسات حتّى تحيد به عن طريق الجنّة.

- **«السعي على الأرملة والمسكين وكفالة اليتيم»**:

رُوي عن النبيﷺ أنّه قال: **«أنا وكافل اليتيم في الجنّة هكذا»**. وأشار بإصبعيه السبّابة والوسطى[1].

وعنهﷺ -أيضًا- أنّه قال: **«الساعي على الأرملة والمسكين؛ كالمجاهد في سبيل اللّه، أَو القائم اللّيل الصائم النهار»**[2].

حيث يبيّن النبيﷺ في هذا الحديث أنّ الأرملة والمسكين مستحقّان للسعي عليهما، وكفالتهما، دون أنْ يحدّد لهما دينًا أو مذهبًا أو جنسيّة، ثمّ وكل كلّ ذلك إلى الجماعة؛ أفرادُها، ومؤسّسات غير الدولة، تلك المؤسسات التي قد تنشغل في خضم السعي لتحقيق التنمية بالتحكّم في ما يسمّى **«التوازنات الماكرو اقتصاديّة»**؛ أي التوازنات الاقتصاديّة الكبرى، على حساب التفاصيل التي تعتبر ثانويّة، هذا التوجيه والتحفيز النبويّ يجد جدواه؛ خصوصًا في زمننا هذا؛ قياسًا إلى كون الدول الإسلاميّة منشغلة باللحاق بالركب التنمويّ العالميّ، في ذهول عن الأعمال الاجتماعيّة التي

(1) العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، م.س، كتاب الأداب، باب فضل من يعول يتيمًا، حديث رقم 6005.

(2) م.ن، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، وقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ۝٢١٩ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۗ﴾ (البقرة: 220/219) وقال الحسن: العفو الفضل، حديث رقم 5353.

تُستدعَى فيها -للأمانة العلميّة- حافزيّة المجتمع المدنيّ في العالم جميعه.

واسترجاعًا لما نصّصنا عليه سلفًا من كون العمل الخيريّ يفتقد وجوبًا إلى الإيمان القبليّ والصلاح الموازي والبعديّ، فإنّ حَديثي كفالة اليتيم، والسعي على الأرملة وظَّف فيهما النبي الكريمﷺ أكبر إمكانات التحفيز القائمة على استدعاء ثوابت الأيمان التي رأسها السعي إلى رضوان الله ودخـول الجنّة، فكيف ودخولها سيكون مع رسول اللهﷺ، كما أزال الحديث التباسًا قد يجعل المسلم المشتغل بالعمل الخيريّ يخلط في ترتيب درجات الصلاح، فيحسب أنّ العبادات الفرديّة التي تكون بين العبد وربّه أكثر صلاحًا وأجدى في تحقيق القربة منه، ويُحِلُّ محلّ هذا الفهم غير السليم فهمًا أسلم هو أنّ الخدمات الاجتماعيّة الخيريّة أسرع في تقريب العبد من أرفع المقامات، وأعلاها، فالله سبحانه وتعالى رتّب أعظم الأجر والثواب على ما يمكن تسميته (القربات الاجتماعيّة)، وأيّ جزاء أعظم من أن يكون كافل اليتيم مع النبيﷺ في الجنّة بمنزلة أشبه بمنزلة السبابة والوسطى؟ وأيّ جزاء أعظم من أن يكون ثواب القائم على الأرملة والمسكين؛ كثواب الذي يصوم فلا يفطر، يقوم الليل فلا ينام؟![1]. فالعمل الخيري الذي يكون القصد منه حفظ كرامة هذين الأنموذجين من نماذج مَنْ أهدر الواقع وقسوة الناس كرامتهما؛ لعلّه لما يتلبّسان به من ضعف جبلّي مرتبط بفقدان السند «**زوجًا**» أو «**أبًا**».

- «**قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا**»:

هي ثقافة العمل الخيريّ يؤسِّس لها الحديثان النبويّان المرجعيّان؛ كما كثير من نصوص الشريعة الأخرى، حتّى تلك التي لا تتحدّث أصلًا عن العمل الخيريّ قصدًا، فالآيات الكريمة من سورة الكهف؛ ومنها: قوله -تعالى-: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا

(1) انظر: بكار، عبد الكريم: ثقافة العمل الخيريّ، كيف نرسّخها؟ وكيف نعمّمها؟ ط1، دار السلام، 1433هـ/ 2012م، ص13.

فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[1]، وإنْ كانت تتحدّث عن تجربة فريدة في تلقين ثقافة التعلّم، غير أنّها تبيّن أيضًا في استقلال عن سياقها أنّ العمل الخيريّ مقصود على كلّ حال، حتّى لو حدث من المستهدفين به ما يزهد في الاستمرار فيه، فهذا «**الرجل الصالح**» أبى أهل القرية استضافته مع رفيقه «**موسى**» عليه السلام، ومع ذلك لمّا أعلمه الله عزّ وجلّ أنّ الجدار هو ليتيمين في المدينة تجنّد ليلته لغير الراحة، بل لإعادة بناء الجدار وترميمه؛ صونًا لحقوق اليتيمَين، في مبادرة تطوّعيّة كان احتجاج موسى عليه السلام الذي لم يعلم بسياقها منصبًّا على جانب التطوّع فيها، حتّى أنّ بعض من تتبّع هذه الآيات بالشرح والتفسير وقف على أنّ «**الرجل الصالح**» لم ينفذ صبره من موسى؛ إلا لمّا استغرب انخراط الصالحين في أعمال الخير، وقد كان أولى أن يُنْهي «**الرجل الصالح**» العلاقة مع موسى عليه السلام على خلفيّة عدم استيعابه أنّ تزكية الله عزّ وجلّ له ضمان كفيل بالتنبيه على أنّ قتله للنفس الزكيّة لنْ يكون أبدًا من قبيل الاعتداء؛ وذلك للتنبيه على مركزيّة العمل الخيريّ التطوّعيّ منه على وجه الخصوص، وهذا يفتح لنا باب الحديث عن علاقة التطوّع بالعمل الخيريّ.

ب. اشتراط التطوّع في العمل الخيري:

لا أرى مدخليّة لتحديد طبيعة العمل الخيريّ؛ بكونه تطوّعيًّا أو مقابل الأجر، فإنّ الذي يستحقّ معه العمل صفة الخيريّة هو عائده المرجوّ على المستهدفين منه، ثمّ مدى صلاحه، أمّا كون الاشتغال به مقابل أجر قد يكافئ أو لا يكافئ المجهود المبذول فيه، فلا اعتبار له، ما لم يدخل إنفاق المال الخيريّ في دائرة يمكن معها تصنيفه في خانات غير الصلاح؛ كالتبذير مثلًا أو الإسراف... ونحو من ذلك، وقد أشارت الآية الكريمة إلى نماذج من العمل الخيريّ المؤسّس والتطوّعيّ الفرديّ، فأثبتت للمشتغلين

(1) سورة الكهف، الآية 77.

فيه أجرًا مقيَّدا بضابط الصلاح المنوّه عليه، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[1]؛ فإنّ «**قوله:** ﴿وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ﴾ ينهى الله -تعالى- عن أكل أموال اليتامى من غير حاجة ضروريّة؛ إسرافًا ومبادرة قبل بلوغهم، ثمّ قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ﴾؛ مَنْ كان في غنية عن مال اليتيم، فليستعفف عنه، ولا يأكل منه شيئًا، قال الشعبي: هو عليه كالميتة والدم. ﴿وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ قال ابن أبي حاتم: (...) عن عائشة قالت: نزلت في والي اليتيم الذي يقوم عليه ويصلحه إذا كان محتاجًا أن يأكل منه (...) بقدر قيامه عليه» قال الفقهاء: له أنْ يأكل أقلّ الأمرين: أجرة مثله أو قدر حاجته. واختلفوا: هل يردّ إذا أيسر؟ على قولين، أحدهما: لا، لأنّه أكل بأجرة عمله وكان فقيرًا. وهذا هو الصحيح عند أصحاب الشافعي؛ لأنّ الآية أباحت الأكل من غير بدل، وقد قال الإمام أحمد: (...) «أنّ رجلًا سأل رسول الله ﷺ فقال: ليس لي مال، ولي يتيم؟ فقال: «**كُل من مال يتيمك غير مسرف، ولا مبذّر، ولا متأثّل مالًا، ومن غير أن تقي مالك - أو قال: تفدي مالك - بماله**»[2].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الآية التي أباحت للعامل على حفظ مال اليتيم أخذ أجرة نظير عمله الخيريّ هذا، جعلت مقام الاستعفاف مع الغنى أولى، لكنّها لم تنفِ سلامة وضع من أخذ أجرًا مع الحاجة إليه، مع إثبات أنّ تقييد أصل الأخذ بالفقر والحاجة، وتقييد قدر المأخوذ بالمعروف يتضمّن ضرورة قدرًا غير يسير من التطوّع؛ لأنّ الأمر لو لم يكن كذلك لاشترط العامل على تدبير أموال اليتيم أجرًا مكافئًا لمجهوده، وإلا ما قام بذلك!!

(1) سورة النساء، الآية 6.

(2) ابن كثير، إسماعيل: تفسير القرآن العظيم، ط1، بيروت، دار ومكتبة الهلال؛ دار البحار لا ت، ج1، ص419.

الأمر ذاته نصّ عليه المشرّع الحكيم عند الحديث عن فاعليّة الأفراد والمؤسّسات في القيام بعمل الخير المتمثّل في جمع الصدقات، فأثبت للعاملين على هذا الخير عطاء من مال الزكاة نفسها. قال -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

وعلى العموم، فإنّ الواقعيّة التي هي من الخصائص العامّة للإسلام تقتضي الإقرار بأنّ اشتراط التطوّع المطلق للعمل الخيريّ شرطًا أوحدًا قد يسدّ باب الاشتغال به؛ لانشغال الناس بتدبير أقواتهم، بل إنّه قد يبلغ بالعاملين في العمل الخيريّ حدّ أن يصيروا إلى الحاجة؛ فيصيروا عندها موضوعًا للعمل الخيريّ، لا منشغلين به.

ثالثًا: بين العمل الخيريّ والدعوة إلى الله في الإسلام:

لقد تبيّن ممّا سبق أنّ «**العمل الخيريّ**» مقصود لذاته؛ خدمة للنوع البشريّ، وصونًا لكرامته، وليس سلوكًا ترقيعيًّا لتخدير المستضعفين وشغلهم عن المطالبة بحقوقهم التي هضمها المهيمنون من المنتسبين إلى طبقات ذي نفوذ وسلطة، على ما تنصّ عليه مرجعيّات نظريّة مناقضة للرؤية الإسلاميّة، كما أنّه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أنْ يتحوّل إلى أداة لمقايضة العقيدة بالخبز والخدمات؛ كما في بعض الحملات التنصيريّة. ولذلك كان المسلك الوحيد للدعوة إلى الدين في الإسلام؛ هو عرض الداعي عقائده وقيمه وأخلاقه... على العقول لمراجعتها وقياس مدى الاقتناع بها، ثمّ تبنّيها رؤية للكون والإنسان والحياة، قال -تعالى-: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[2]، ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾[3]... فمرجع

(1) سورة التوبة، الآية 60.
(2) سورة محمد الآية 19.
(3) سورة النحل، الآية 125.

اعتماد المسلمين البرهان لتبليغ رؤيتهم عن الكون والإنسان والحياة، يكمن في أنّ الدعوة إلى الله بالنسبة إليهم هي أغلى ما يعيشون لأجله؛ استجابةً للتنصيص القرآنيّ على ذلك، في مثل قوله -تعالى-: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1]. ولذلك فلا يمكن أن يكون مسلكهم إلى هذه المهمّة الغالية على القلوب مسلكًا ينتج انتهازيّين يتحيّنون فرصة العطاء للتكاثر، وفرصة التضحية للانفضاض، بل ينتج مؤمنين حقيقيّين.

لقد كانت قصّة النبيﷺ مع الأنصار بعد قسمته لغنائم غزوة حنين؛ موضّحًا بما لا مزيد عنه لقضيّة علاقة الدعوة إلى الله بالعمل الخيريّ؛ والقصّة باختصار: أنّ النبيﷺ وزّع الغنائم على المؤلّفة قلوبهم، ولم يعطِ الأنصار منها شيئًا، فوجدوا في أنفسهم من ذلك، فلم يلبث رسول الله ﷺ أنْ بَلَغه الأمر، فجمع الأنصار، وقام فيهم خطيبًا، وبيّن بما لا مزيد عنه فلسفة الإسلام في الدعوة من جهة، والعطاء من جهة أخرى، فقل لهم: »أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار فيّ لعاعة من الدنيا تألّفت بها قومًا أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسّم الله لكم من الإسلام، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أنْ يذهب الناس إلى رحالهم بالشام والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم، فوالذي نفسي بيده لو أنّ الناس سلكوا شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا؛ لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت أمرؤا من الأنصار، الأنصار شعار والناس دثار. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار. قال: فبكى القوم حتّى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا بالله ربًّا، ورسوله قسمًا، ثمّ انصرف وتفرّقوا«[2].

(1) سورة فصلت آية 33.

(2) ابن كثير، إسماعيل: السيرة النبويّة، 1393هـ/ 1976م، تحقيق: مصطفى عبد الواحد بيروت، دار المعرفة، ج3، ص679.

لقد بَيَّن هذا المشهد في كلّيّته تصوّرًا قطعيًّا؛ مفاده: أنّ العقيدة لا تبنى قطعًا على درجة العطاء، خيريًّا كان أو رشوة، بل يزيد في بيان هذا إصرار النبيﷺ على أنْ يكل الأنصار إلى إيمانهم؛ على الرغم ممّا بلغه من تأثّرهم بعدم تخصيصهم بالعطاء، وقد تبيّن في نهاية المشهد أنّ تأثّر الأنصار لم يكنْ بسبب عدم حصولهم على «**لعاعة من الدنيا**»، بل بسبب حالة تخوّف من أن يذهب النبيﷺ عنهم إلى قريش قومه، وهذا لعمري تعبير عن قوّة العقيدة؛ ذلك أنّ النبيﷺ ليس رجلًا من الرجال يُزهد فيه، بل هو رسول اللهﷺ يحمل العقيدة إلى الناس، ومقام الارتباط به مقام ارتباط بدعوته، في غير إطراء نهى عنه، وعدم الإطراء هذا هو حماية للعقيدة ذاتها؛ بتوحيد الربّ سبحانه وتعالى.

أمّا سهم المؤلّفة قلوبهم والذي يحرص البعض على إظهاره بمثابة مورد للمنتسبين إلى الدين، فإنّه ليس أكثر من عطاء يُراد منه إقناع المؤلَّف قلبه بقيمة أخلاقيّة في الدين؛ من قبيل: عدم الخوف من الفقر، وسعة الكرم الدالّ على عدم الخضوع للدنيا، فهذا الذي يعطي عطاء مَنْ لا يخشى الفقر؛ إنّما يؤكّد كونه سيّدًا على الدنيا وما فيها، لا عبدًا لها، وهذا يعني أنّ الصورة التي هي «**العطاء**» ليست مقصودة لذاتها تستذر مقابلًا لها هو دخول المنافق إلى الدين!!! بل المقصود الدعوة إلى الله بخلق التسيّد على الدنيا، لا الخضوع لهاجس الخوف من تقلّباتها، وهو رأس اليقين في الله عزّ وجلّ، وقد وعى الأعرابي هذا حين دعا قومه إلى رسول لا يخشى الفقر؛ لثقته في ربّ الكون، فـ«**عن موسى بن أنس، عن أبيه، قال:** »ما سئل رسول اللهﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه، قال: فجاءه رجل فأعطاه غنمًا بين جبلين، فرجع إلى قومه، فقال: يا قوم أسلموا، فإنّ محمّدًا يعطي عطاء لا يخشى الفاقة»[1].

(1) النووي، محي الدين يحيى: صحيح مسلم بشرح النووي، م.س، كتاب الفضائل، باب ما سُئل رسول اللهﷺ شيئًا قط فقال لا وكثرة عطائه، حديث رقم 2312.

وفي المحصلة، فإنّه لا عطاء في مقابل الدين، بل هما خطّان متوازيان، لكنّهما منفصلان من حيث المسار والغاية:

- فالدعوة إلى الله «هي إذن دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، ودعوة المسلمين إلى تنفيذ الإسلام والعمل على إقامة شرعه ومنهجه في الأرض، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوز الناس بسعادة العاجل والآجل»[1]
- والعمل الخيريّ هو وجه من وجوه الحديث: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[2].

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة، نقدّم جملة من الخلاصات والتوصيات:

خلاصات:

1. إنّ العمل الخيريّ هو كلّ فعل يستهدف إكرام الإنسان؛ من جهة كونه إنسانًا.
2. العمل الخيريّ عمل ينطلق من الإيمان ويتقيّد بالصلاح؛ ولذلك فهو خادم للإنسان.
3. لا يراعى في المستهدَفين بالعمل الخيري غير آدميّتهم المستحقّة للتكريم؛ تبعًا للتكريم الربّانيّ.

---

(1) الواعي، توفيق: الدعوة إلى الله، الرسالة – الوسيلة - الهدف، ط1، مكتبة الفلاح الكويت، 1406هـ/ 1986م، ص19.

(2) النووي، محي الدين يحيى: صحيح مسلم بشرح النووي، م.س، كتاب الوصيّة، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، حديث رقم 1635.

4. أمّة الإسلام استحقّت التفضيل، لا لعرق أو نسب أو دم، بل لإقامتها قيم الخير وجنوحها نحو الأمر بما تعارفت عليه الفِطر والعقول السليمة وإنكارها لما أنكرته.

5. العمل الخيريّ في الإسلام موافق للأفق الإنسانيّ؛ لمخالفته فلسفة آليّة الإنسان وانعكاسه للواقع بخضوعه لحتميّاته، ولأنّه يعتبر الأخلاق معطى مركزيًّا في تدبير حياة الناس. ومن أهمّ الأخلاق حماية الناس ورحمتهم.

6. العمل الخيريّ في الإسلام لا يقايض الخيريّة بالعقيدة، بل يحفظ لكلّ مجال من مجالات العمل بابه الذي يدخل منه، فالعقل والبرهان مدخل الدعوة إلى الله، وخدمة البشريّة حفظًا لكرامة الناس، مجال انصباب العمل الخيريّ.

توصيات:

1. الحذر كلّ الحذر من الانزلاق إلى إعادة إنتاج الأطروحات غير الإسلاميّة في مجال العمل الخيريّ.

2. دعم الجهود البحثيّة للتنظير للعمل الخيري في علاقته بمجالات حقوق الإنسان، التكريم الإنساني، وفق أفق إنساني رحب.

3. إقامة المؤتمرات العلميّة المصحّحة للتصوّرات والمقوّمة للاعوجاج فيها.

4. دورات تدريبيّة للمشتغلين في العمل الخيريّ للرفع من مستوى جهوزيّتهم الفكريّة بالخصوص.

5. الاشتغال على القضايا الفكريّة المتشابكة مع العمل الخيريّ؛ كإجارة المشتغلين فيه، وتأليف القلوب.